مسيرالفولكلور العربي

د. حارث مبين *

Abstract:

Some five centuries earlier to the west, famous Muslim historian and sociologist Ibne Khuldon discussed the idea of Folklore and its impact on society. Anthropology with its branches flourished in the 19th century and paved the way for preservation of culture and heritage in quest of strengthening the link between the present and past. The first to turn this trend are the Grimm Brothers of Germany who collected the German heritage legacies. In 1846, the term of Folklore was used by English journalist William John Thomas. This article presents the study of Folklore in Arabic literature.

قدّم المسلمون الأسس في العلوم المختلفةلصلاح البشرية مثل علم الاجتماع و فلسفة التاريخ و مبادئ التاريخ الحضارى وغير ذلك.جاء ابن خلدون (732- 808 من الهجرة الموافق ب 27 مايو 1332م-19مارس 1406م) بأسس علم الفولكلور و فكرته قبل الغرب بخمسمائة عام وعقد فصلاً كاملاً عن اللهجات العامية العربية و ظروف نشأتها وطبيعة علاقتها بالفصحى وتحدث عن أثرها في المجتمع و أشار إلى ضرورة دراستها و الاهتمام بها في الجزء الأول من كتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (1)

وجد الأوروبيون بواكير النهضة العلمية قبل قرنين تقريباً و درسوا كثيراً من العلوم ومن بينها علم الأنثروبولوجى (Anthropology) وهو يتعلق بنشأة وتطور الإنسان حتى الوصول إلى ما هو عليه الآن ثم قُسم علم الأنثروبولوجى الى قسمين، الأول الذى يدرس بالتركيب العضوى للإنسان وسُمى: الأنثروبولوجي الطبيعي (Physical Anthropology) والثانى الذى يدرس بسلوك الإنسان وسُمى: الأنثروبولوجى الاجتماعى (Social Anthropology) وانتشر مجال عمل

---

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية و آدابها، الكيلة الشرقية، جامعة بنجاب، لاهور.

الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث وجدت أن عليها تغطية عددكبير من ميادين البحث المختلفة،والتى يمكن أن يستقل كل منها بذاته. فمثلاً الجانب الخاص بموضوع الاستيطان والاقامة يمكن أن يقوم به علم خاص هو علم السكان (Morphology) والجانب الخاص بطرق المعيشة من منازل و حرف وأدوات و صناعات و مهارات يدوية و ملابس و أساليب التزيين و التجميل وما الى ذلك من مظاهر الحياة العلمية يمكن أن يقوم به علم الأثنوجرافيا (Ethnography) والجانب الثقافي من عقائد وعادات و مأثورات متوارثة من أساطير و حكايات وأمثال و أغنيات و موسيقى ورقص ورسم وغير ذلك من مظاهر المعرفة هى التى يقوم بها علم الأنثروبولوجيا الثقافية (Cultural Anthropology) (2)

قد إزدهرت هذه الدراسات إزدهاراً كبيراً فى القرن التاسع عشر. وحاول العلماء أن يتمسكوا بموروثاتهم التراثية وحرصوا على توثيق الصلة بينهم وبين ماضيهم.

وأول من اتجه هذا الاتجاه هما الأخوان جريم من ألمانيا أي يعقوب جريم (Jacob Grimm 1863- 1785) وفيلهلم جريم (Wilhelm Grimm 1859- 1786)، اللذان عملا على جمع الموروثات التراثية الألمانية. ونجح عمل الأخوين جريم نجاحاً باهراً، وانتشرت فكرة الدراسات الجديدة،و بدأت معظم الدول الأوروبية تحت أسماء مختلفة. (3)

وقد كان المهتمون في كل بلد يستخدمون مصطلحاً مأخوذاً من لغة البلد الذى ينتمون اليه. (4)

وفى عام 1846م ، أول من إستخدم كلمة" الفولكلور Folklore"،هو الصحافى الإنجليزى ويليم جون توماس (William Jon Thomas). ويجدربنا أن نقف قليلاً عند كلمة لاتينية "الفولكلور"،ولها أساسان Folk معناها الناس،و Lore معناهاالحكمة أوالمعرفة. (5)

وفى الوقت الحالي فإن ألفاظ الفولكلور والحياة الشعبية و الثقافة الشعبية (التقليدية) والتراث الشعبي (6) والمأثورات الشعبية تستخدم كلها للدلالة على الإرث الثقافي الشعبي لأي مجموعة من الناس أوشعب من الشعوب (7) أو للدلالة على التقاليد والعادات والمعتقدات(8) والخرافات التى عند طبقة غير مثقفة من الناس يعيشون فى مجتمع متحضر مثقف. (9)

ويمكن أن يشتمل كل ما يتعلق بالطبقات المتخلفة غيرالمثقفة من مسائل كلية ومسائل مادية ورثوهاعن الأجيال القديمة،فخالفوا بهاالمجتمع المتحضرالمثقف الذى يعيشون فيه.فمثلاً جميع التقاليد القديمة التى ورثها المجتمع المصرى الحديث عن حضارة أجدادهم الفراعنة لا ينطبق عليها اصطلاح الفولكلور إذا كانت الطبقة المثقفة فى المجتمع المصرى تمارسها على نحو ما يمارسها الطبقة غير المثقفة.ومثال ذلك:

(10)

نجد فى كتب الحضارات فصولاً ممتعة من الديانات القديمة ، وفى هذه الفصول التى كتبت كتابة علمية خالصة معتمدة على دراسات أنثروبولوجية تجد الشئ الكثير من الأساطير والقصص التى كان يتناقلها القدماء جيلاً بعد جيل و كونت عقيدتهم الدينية، وهذه أخص خصائص الفولكلور. (11)

ونستطيع أن نقسم قصص الفولكلور على ثلاثة أقسام، الأول: الأساطير التى تتعلق بالدين، والثانى: بطولة بعض أشخاص التاريخ، والثالث: بعض النواحى الاجتماعية. و هذه الأقسام الثلاثة تتداخل عند الشعوب القديمة تداخلاً تاماً بحيث أصبح موضوع قصص الفولكلور معقداً أشد التعقيد، يعتقد المصريون أن الكلب عندما يرى عزرائيل يدخل داره يعوى عواء خاصا بنغمة غير التى نعهدها فى نباح الكلب، فيفهم أهل الدار أن كارثة ستحل بهم، أو ما يقوله المصريون أيضاً عن نعيق البومة وتشاؤمهم من سماع نعيقها. والقسم الثانى يتعلق عن سير الأبطال أو رجال الدين ويدخل في ذلك خوارق و معجزات مثل ما يقوله جماعة الصوفية من المسلمين من أن ابن الفارض كان يأتيه أسد يقف على بابه كل يوم فاذا خرج ابن الفارض من داره كان الأسد يقول له " تفضل اركب يا سيدي". ومع ذلك القسم الثانى من بعض أخبار لا يتعلق بالدين فى شئ كقصة أبي زيد الهلالى والزناتى خليفة أو سيرة عنترة بن شداد. والقسم الثالث من القصص يتحدث عن النواحى الاجتماعية فهى بطبيعة الحال متداخلة مع القسمين الأخيرين لما فيها من عادات أو بعض خرافات كالتى نراها فى بعض قصص ألف ليلة وليلة. (12)

يعتقد علماء الفولكلور أن الأغانى لها أصول عريقة و تطورت هذه الأصول حتي جاءت إلى الطبقات المختلفة من الشعب أو العرب الراحل أو جماعة الغجر فى أوروبا.و أدخل العلماء أغانى الحصاد فى ميدان الفولكلور لأنها تنشدها مجموعة من الأفراد أما غيرها من الأغاني التى يغنيها شخص واحد فهو بعيد عن الفولكلور حتى ولو كانت قديمة

فالشرط الأساسى فى أغانى الفولكلور أن تكون أغنية ترددها مجموعة. وبطبيعة الحال لا يدخل فى هذا الميدان المغنى و معه الكورس أو منشد المدائح النبوية.وهكذا الرقص بالجماعة كالذى نجده أمام الزفة في الأفراح البلدية فهو من الفولكلور أما رقص الفنانات فهو ليس من الفولكلور. (13)

إتفق العلماء على أن العادات والتقاليد في البيئات المختلفة هى من أسس الفولكلور ويشتمل على هذا المجال الملابس التى تلبسها الطبقات المختلفة فبعض أهالى الريف المصرى لهم طريقة خاصة فى وضع اللبدة على رؤوسهم تختلف عن الطريقة التى يتبعها بعض سكان القرى الأخرى. و حلوى المولد النبوي و العرائس واللعب من الفولكلور(14) .

نجد الجدل بين المنكرين و المثبتين للدراسات الفولكلورية و الشعبية.وأنكر كثير من العلماء الجدد الأدب الشعبي فأشار الأستاذ أحمد أمين ويوري سوكولوف (15) : أنه تخلف وجهل لأنه يصور تعابير وأحاسيس و مشاعر قائليه من عامة الشعب (16) . وقال الآخرون: إنه سازج المحتوى وقليل المعنى وفقير اللغة وبسيط البناء ولا يستطيع الهامه أن يرتفع فوق الحياة اليومية (17) . وقال أبو عبدالرحمن بن عقيل: ماوجدت فى المعارف النظرية الغربية أشد فضولاً من علم الفولكلور لأنه تحوير، دلالة للفظ قسراً على معانى متباينة، ومن ضرورة منهجية أو نظرية إلى توحيد هذه المعانى فى اصطلاح واحد.ثم قال: وفي واقعنا العربى لسنا بحاجة إلى نقل خلاف الأوربيين حول معناه ليكون قضية حية بيننا، وانما حسب المثقف العربي أن يعرف معنى الفولكلور عند الآخرين، ... ومن عناصر الفولكلور ما لا يجوز الاصطلاح به على كثير من مأثورنا العربي والاسلامى ... وصل الى النتيجة فقال: الفولكلور تلفيق بين بعض المعارف ليس فيه ابتداع أو تعميق جديد لمعرفة سابقة... ثم يقترح : للعرب أن يعبروا عن هذا المصطلح "فولكلور" بالثقافة المقارنة ليكون اسما لفرع علمي مستقل لا يتفرغ للدراسة والتأريخ للناحية الفكرية وحدها أو الحضارة المادية وحدها أو اللغة، وانما اذا أراد الباحث أن يقيد بحثه بأمة أو بمجتمع فطرى لم يكتسب معارفه بوسائل العلم فله أن يقيد فقال: ثقافة العامة في نجد أو ثقافة أهل الريف في مصر. (18)

و ردّ محمد حسن عبدالمحسن على قول أبي عبدالرحمن بن عقيل بأن قوله هذا يتناول الشكل والقشور والمسميات و يخرج عن دراسة اللب و المضمون والجوهر، فكل ما يزعج أبا عبدالرحمن هذا هو الاسم أو اللفظة الأجنبية(فولكلور). وأضاف إلى ذلك، إن الدراسات الشعبية جديدة وهى مجال للبحث والنقاش والمداولة، ولم تستكمل مناهجها ونظريتها (19) . وبعض من العلماء يرفضون الأدب الشعبي لأنه يختلط بالعلوم والفنون الأخرى مثل فروع المعارف من طب وزراعة ومهن وسلوك اجتماعي ودين وغيرذلك ولا يأتى خالصاً. (20)

وقال المفكر السوري تركي على الربيعو (1951-2005م) عن دراسة الفولكلور: استوردها البرجوازيون (21) ليخدموا بها الاستعمار، ثم قال بالجملة الواحدة : تلقى ظاهرة الفولكلور أو الثقافة الشعبية الدعم من دولنا و لها ميزانياتها ومراكزها الثقافية في الخمنسينات في مرحلة صعود البرجوازية الصغيرة في عالمنا العربي بدأ الاهتمام بالشعر الشعبي واللغة العامية و الأزياء الشعبية وبالأغاني الفلاحية وبحكايا الأطفال والعجائز وأطلق على هذه الأمور الفولكلور.لقد جاءت فكرة الفولكلور لتخدم هدفاً استعمارياً جاءت لتحل محل ثقافتنا القديمة الأصلية ولذلك يجب أن نعارضه بشدة بل وبعنف. (22)

ورفض الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين (1912-1982م) الفولكلور والأدب الشعبي رفضاً تاماً و أشار الى هذه الدراسات بأنها من مؤامرات الغرب ضد البلاد الإسلامية و الوحدة الإسلامية و أورد الدكتور أحمد ابراهيم خضر (23) فكر الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين وقوله أن الفولكلور هو عدوى انتقلت إلى بلادنا بفعل حب التقليد للأجنبي، وقوله في ذلك: ولما استولى علينا حب التقليد الأعمى للأجنبي في الخير والشر، كان ما ابتُلِينا به أننا أصبحنا لا نُعجب بأثرٍ من آثارنا أو عادة من عاداتنا حتى نسمع تقريظ الأجنبي لها فنُقرظها تبعًا له، أو نرى اهتمامه بها وعنايته بدراستها فندرسها اقتداء به، وكان الفولكلور من بين ما انتقلت إلينا عدواه. (24)

و قال الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين أن الناس يجهلون الأهداف الحقيقية للفولكلور و يرى: أن أهداف الغرب من تأسيس علم الآثار وتشجيع الفولكلور في بلادنا الإسلامية هي تدعيم سياسة التجزئة التي نفذوها حينما قطعوا أوصال هذه البلاد؛ وذلك: بتلوين الحياة المحلية في كل بلد من البلاد الإسلامية بلون خاصٍّ يستند إلى أصوله الجاهلية الأولى، وبذلك تعود الحياة الاجتماعية التي وَحَّد الإسلام مظاهرها إلى الفرقة والانشعاب، برجوعها إلى أصولها القديمة السابقة على الإسلام، فيستريح المُسْتَغِلُّون من احتمال تكتُّل المُسْتَعْبَدين، ثم تكون هذه المدنيات الحديثة أكثر قبولاً لأصول المدنية الغربية، ويكون كلُّ شعب من هذه الشعوب أطوع لما يراد حمله عليه وزجِّه فيه من الصداقات ومناطق النفوذ، بعد أن تتفكك عُرَى الأُخُوَّة العربية والإسلامية . (25)

والآن ننقل حديثنا الى مثبتين و مؤيدين للفولكلور العربي و الأدب الشعبي العربي. و فهرس علماء الفولكلور العربي طويل و على غرتهم المستشرق جون لويس بوكارت(1784-1817م) الذى نشر مجموعة "أمثال شعبية"لشرف الدين أسد (26) . و خدمة هذا المستشرق تؤيد فكر الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين.

وأشار الدكتور أحمد رشدى صالح (المتوفى1980م) الى ميزة من ميزات الأدب الشعبي و أجملها: تتلاقى الآداب الشعبية التقليدية في قسمات أربع رئيسة و تمتاز بها على آداب الفصحى وهى العراقة

(27).

ونشر نعوم شقير(1863-1922م) مجموعة بعنوان:" أمثال العوام في مصر والسودان والشام" ثم طبع الدكتور أنوليتمان مجموعة عن أمثال العوام في مصر والسودان و الشام وجمع أحمد تيمورباشا(1871- 1930م) "الأمثال الشعبية". ألف أحمد أمين (1878-1954م)" قاموس العادات و التقاليد والتعابير المصرية" وحصلت سهير القلماوي(1911-1997م) على شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة وموضوعها "ألف ليلة وليلة" و هكذا نال عبد الحميد يونس(1810-1988م) شهادة الدكتوراه وكان موضوع أطروحته: "الهلالية في الأدب و سيرة الظاهر بيبرس" وقدمت الدكتورة نبيلة ابراهيم دراسة " سيرة الأميرة ذات الهمة" وقدم الدكتور محمد ذهنى دراسة لسيرة عنترة وقدم الدكتور لطفى عبدالحميد(1932- 2002م) رسالة لجامعة القاهرة عن "الزير سالم" وألف الدكتور أحمد رشدي صالح (1920- 1980م) كتابه "الفنون الشعبية و الأدب الشعبي" وألف الدكتور أحمد عيسى طيبي ثلاثة كتب تراثية:آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب، الترقيص والغناء للأطفال عند العرب، وألعاب الصبيان عند العرب (28) . كما ذكرنا أن قائمة علماء الفولكلور طويلة جداً، ولا نستطيع أن نذكر كلهم في هذا المقال الموجز.

وأنشئت مراكز الفنون الشعبية في معظم البلاد العربية.فعلينا أن نذكر بعضاً منها، ولعبت جمهورية مصر دوراً هاماً في نشر هذه الدراسات و أسس مركزاً للفنون الشعبية والمجلس الأعلى للفنون والآداب و لجنة لرعاية الفنون والآداب الشعبية و كذلك أنشئ كرسى للأدب الشعبي في كلية آداب القاهرة.و أنشئ في الكويت مركز للفنون الشعبية منذ عام 1956م، مهمته جمع وتصنيف التراث الشعبي الكويتي، خصصت مادة للأدب الشعبي في كلية آداب جامعة الكويت. وأنشئ في الأردن قسم الفولكلور في دائرة الثقافة. ونشر نمر سرحان الأغانى الشعبية في الضفة الغربية و كتب توفيق السهيلى عدة مقالات عن التراث الشعبي الفلسطيني و ألف هاني العمد كتاب"الأغاني الشعبية في الضفة الشرقية" و كتاب "الأمثال الشعبية الأردنية". وأنشئ مركز للفولكلور العراقى، و صدرت مجموعة " الأمثال البغدادية المقارنة"لعبد الرحمن التكريتي(1914-1987م)كما صدرت الأمثال العامية الموصلية و ألف لطفى الخوري "علم التراث الشعبي" سنة 1979م. وهكذا قامت كلية آداب طرابلس بجمع الأدب الشعبي الليبي. و نهض المغرب العربي بجمع تراثه الشعبي ودراسته.و أسست تونس مركزا لجمع المأثورات الشعبية و مجلس لرعاية الفنون الشعبية.وكذلك اهتم سعد الدين بن شنب(المتوفى1968م) والشيخ يلفوشي والدكتورعبدالملك مرتاض بالدراسات الشعبية في الجزائر.وقدم عبدالقادر

. (29)

كانت جامعة الخرطوم كدأبها رائدة في الاعتراف بالفولكلور كعلم له منهجيته و وسائله، فأنشأت في عام 1964م وحدة أبحاث السودان وعام 1972م أصبحت هذه الوحدة معهداً للدراسات الأفريقية والآسيوية وانقسم الى ثلاثة أقسام هى:قسم الدراسات الأفريقية والآسيويةو قسم اللغات السودانية و الأفريقية وقسم الفولكلور. وكانت أهداف قسم الفولكلور تتلخص في جمع التراث الشفاهى والمادى وتوثيقه وتدريب طلاب القسم وتأهيلهم لنيل درجات الدبلوم العالي و الماجستير والدكتوراه وإجراء بحوث في مجالات الفولكلور المختلفة. (30)

ساعدت دراسات الفولكلور و الأدب الشعبي ازدهار فكر القومية في البلاد العربية بدل الشعوبية و هذه الدراسات تقويم جديد. وكل تقويم مثل هذا هو رد فعل ضد التداخل الثقافي العربي. وبمساعدة هذه الدراسات نستطيع أن نحفظ من العادات والتقاليد الشعبية بالضياع بنتيجة التقدم العلمى و الحضارى.

*****

الهوامش والمصادر و المراجع

(1) ذهنى، الدكتور محمود: الأدب الشعبي العربي- مفهومه و مضمونه، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، 1972م، ص:32.

(2) المرجع السابق:20-22

(3) المرجع السابق:29.

- و قانصو، الدكتور أكرم:التصوير العربي الشعبي، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، العدد203، نوفمبر1995م، الكويت.

(4) عبد السلام، شرف الدين الأمين:دراسات في الثقافة و الفولكلور،معهد الدراسات الإفريقية و الآسيوية جامعة الخرطوم، السودان، 2008م، ص:41.

(5) ذهنى، الدكتور محمود: الأدب الشعبي العربي- مفهومه و مضمونه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م، ص: 20

(6) الخورى، لطفي: في علم التراث الشعبي،الموسوعة الصغيرة: 40، منشورات وزارة الثقافة و الفنون، الجمهورية العراقية،1979م، ص: 7.

(7) عبد السلام، شرف الدين الأمين:دراسات في الثقافة و الفولكلور،معهد الدراسات الإفريقيةو الآسيوية جامعة الخرطوم، السودان، 2008م، ص:41.

(8) حريز،سيد حامد و بشرى، محمد المهدى: دراسات فى الفولكلور التطبيقي الإفريقي، معهد الدراسات الإفريقيةو الآسيوية،جامعة الخرطوم، السودان، 2010م، ص:6.
(9) البقلى، محمد قنديل: صور من أدبنا الشعبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1962م، ص: 9
(10) المرجع السابق،ص:10-11
(11) المرجع السابق،ص: 12
(12) المرجع السابق،ص: 13-14
(13) المرجع السابق،ص: 14- 15
(14) المرجع السابق،ص: 16
(15) كاتب سوفيتى الذى نشركتابا عن الفولكلور الروسى بإشتراك شقيقه في سنة 1938م، المتوفى1941م.
(16) أمين، أحمد:قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، الطبعة الأولى،لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1953م(المقدمة). و سوكولوف، يوري: الفولكلور وقضاياه وتاريخه، ترجمة حلمى شعراوي و رفيقه،الهيئة المصرية،1971م،ص: 131. نقلاً من : عبد المحسن، محمد حسن: الأدب الشعبي في حلب- دراسة و تحليل، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية،2006م. ص: 33
(17) عبد المحسن، محمد حسن: الأدب الشعبي في حلب- دراسة و تحليل، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية،2006م. ص: 33
(18) مجلة الفيصل السعودية، مقالة لأبى عبد الرحمن ابن عقيل- العدد 57، عام1980م، (ص24)
نقلاً من: عبد المحسن، محمد حسن: الأدب الشعبي في حلب- دراسة و تحليل، وزارة الثقافة، الجمهورية العربيةالسورية، 2006م. ص: 34
(19) المرجع السابق.
(20) المرجع السابق.
(21) كلمة فرنسية الأصل تدل على الطبقة الوسطى القائمة بين طبقة النبلاء والطبقة العاملة. وتستخدم كلمة (برجوازية) عند الاشتراكيين و الشيوعيين بمعنى الطبقة الرأسمالية المستغلة في الحكومات الديمقراطية الغربية والتي تملك وسائل الإنتاج وتستولي على فائض العمل الذي تقوم به الطبقة الكادحة.وبعد نمو النظام الرأسمالي الحديث أصبحت كلمة ((البرجوازية)) تتطبق على الأفراد الذين ترتبط مصالحهم بأصحاب وسائل الإنتاج. ويميز كارل ماركس بين البرجوازية الكبيرة grand bourgeoisie وتتكون من كبار أصحاب رؤوس الأموال ورجال المال والصناعة وكبار الملاك والبورجوازية الصغيرة petty bourgeoisie وهي الطائفة التي تضم صغار المنتجين وأصحاب الحرف والمهن.

(22) عبد المحسن، محمد حسن: الأدب الشعبي في حلب- دراسة و تحليل، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية،2006م. ص: 34
(23) ولد الدكتور أحمد ابراهيم خضر بأسوان،مصر في سنة 1946م .وهومن علماء علم الإجتماع العسكرى.
(24) خضر، الدكتور أحمد ابراهيم: علم الفولكلور و الأدب الشعبي
http://www.alukah.net/Literature_Language/0/8529
(25) المرجع السابق
(26) عبد المحسن، محمد حسن: الأدب الشعبي في حلب- دراسة و تحليل، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، 2006م. ص: 19
(27) المرجع السابق، ص:17
(28) المرجع السابق، ص:20
(29) المرجع السابق، ص:21-22
(30) عبد السلام، شرف الدين الأمين:دراسات في الثقافة و الفولكلور،معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، السودان، 2008م، ص:43-44.